كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في ذكرى الانتفاضة الشعبانية بمدينة الناصرية
بتاريخ
2012/3/2

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه:
((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)).

مرة أخرى، ومن بوّابة العطاء المتعدّد.. من الناصرية.. من نافذة التاريخ، أو بوّابة التاريخ إلى جانب شقيقتيها العمارة والناصرية، حيث بدأ ركب الحضارة الإنسانية بالتحرّك... أبت الناصرية إلا أن تخطّ إلى جانب أخواتها بداية جديدة هي بداية الثورة التي انطلقت عام 1991 من الناصرية والبصرة، لتعمّ مدن العراق كلها.. في الآية القرآنية الكريمة:
((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عليه)).

عهد مع الله، وصدق بالالتزام كلمتان تحملان في ثناياهما كل القوة، وتحملان سرّ الصمود، وسرّ الاجتياز إلى المستقبل، وصناعة الصعب:
((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ)).

قيل: إن (النحب) هو الالتزام بالحكم المفروض بالوجوب، وقيل: هو الأجل، أما نزول هذه الآية القرآنية الكريمة فقد قيل: في بدر، وقيل: في أحد، وقيل: في الأحزاب، وفي الخندق.. ومن مسرح النزول في التاريخ الإسلامي إلى مسرح المعاصرة في الناصرية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورجال في عام 1991 كانوا قلة في العدد غير أنهم كبار في الإرادة، كانوا قد صمّموا على عقد مسيرة طويلة يرتقون فيها بالطريق الصعب؛ حتى تتحوّل الناصرية من مولد من مواليد الثورة في نهاية القرن العشرين عام 1991، إلى مولد تخاطب فيه شعوب المنطقة في العقد الثاني من القرن والحادي والعشرين؛ ولتنبجس عنها عين تفجّرت على شكل ثورة في تونس، وعبرت إلى مصر، ثم إلى ليبيا، واليمن، وإلى مناطق أخرى من العالم المعاصر.

إن أحد هؤلاء الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه كان (حسين عطية)، الذي أطلق الشرارة الأولى حين هتف بأن علينا أن نكتب تاريخاً جديداً، وثنّى عليه رفيقه الشهيد العزيز (حيدر جلوب) الذي سحب بندقيته، وقال: لابد أن نصنع مقدمات

الثورة؛ حتى ننتهي إلى الشوط الأخير، واستجاب لهما شقيقهما الثالث (علي ليلو) في منطقة الفهود، الذي أبى الانسحاب من المواجهة، وكذلك كان.

يذكّرني هؤلاء الأبطال الثلاثة الذين صنعوا، وبدأوا شرارة الانتفاضة عام 1991بأخواتهم الشهيدات الشهيدة (الجابرية) من الناصرية، والشهيدة البطلة (فطيم سرحان) من الناصرية كذلك، وهكذا نكون قد التقينا بالناصرية ليس فقط نلتقيها معدناً للحضارة وبداية للتاريخ إنما نلتقي الناصرية معدناً للثورة، وسرّاً للانتصار.. هكذا بدأت الثورة الشعبانية.

لم تكن انتفاضة إنما كانت ثورة بكل ما تعنيه كلمة الثورة من معنى؛ لأنها لم تقتصر على طبقة اجتماعية معيّنة، ولم تحدّد هدفاً جزئياً، ولم تجدول حركتها في زمن قصير، إنما خاطبت الشعب العراقي كله، واستنهضته؛ لتستهدف النظام كله بكل مؤسساته حتى انتهت إلى ما انتهت إليه.

في زمن السيد الشهيد العملاق الأول محمد باقر الصدر (قدس الله نفسه الزكية)، توافرت نظرية سياسية رائعة، وتوافر قائد سياسي رائع إلا أنها كان ينقصها ضلع واحد وهو بعض القواعد الجماهيرية التي لم تكن تصطف إلى جانب القائد؛ فتعرّضت حركته المباركة إلى ما تعرّضت إليه، أما السيد الشهيد الثاني السيد محمد محمد صادق الصدر (قدس سره الشريف)، فقد توافرت هذه القاعدة الشبابية الرائعة، وامتدّت كالنار في الهشيم من منطقة إلى أخرى، غير أن يد السوء التي امتدّت من الخارج العراقي على الصعيد الإقليمي والصعيد الدولي، أبت إلا أن تعرقل مسيرة الثورة متهمة إياها مرة بأنها ثورة طائفية، ومرة أخرى بأنها جاءت من خارج الحدود.

هؤلاء الذين عانوا الويلات من ظلم صدام، لكنهم - للأسف الشديد - ما إن وجدوا بيارق التحرير قد قاربت على الانتصار، وأن الثورة منتصرة لامحالة إلا استبدّت بهم عقدة الطائفية المقيتة، وتجرّدوا عن مبادئهم، وهم لم يكونوا يمثلون السنة ولا الشيعة، وبعد أن صرّح بوش الأب بأن على الجيش العراقي والشعب العراقي أن يقرر مصيره، ويُنهي صدام الظالم المقبور، تخلّى عن وعوده، وكذب جهاراً على العالم كله وعلى العراقين خاصة، وسمح لصدام بأن يستخدم الطائرات التي فتّت في عضد الثورة، وإذا كان من شيء فتّ عضد الثورة عام 1991 فهو الطائرات العمودية التي استخدمها النظام المقبور، وبدأت المقابر الجماعية، ودُفِن ما لايقل في حينها عن 350 ألف عراقي من الأبطال من النساء والرجال والشباب والشيوخ، دُفِنوا أحياءً تحت الأرض، والعالم أصابه الصمم، وإلى اليوم يذكرون الثورات في كل مكان، ونحن نذكر ذلك كذلك.

إن شعبنا يدرك قيمة الثورة، ويسبر غورها، ويستشرف مستقبلها منذ وقت مبكر؛ لذلك قال أبناؤكم وإخوانكم في البرلمان العراقي منذ وقت مبكر بأن ما حصل في تونس ليس انتفاضة آنية، وليس نزوة أو صرخة عاطفية إنها تحمل في ثناياها معنى الثورة، وما خمد أوارها إلا وأقصت زين العابدين بن علي، وكان قراءتكم الثورة من موقع التجربة.

إن ثورة تندلع من العمق التونسي لن يحول دون انتشارها أحد، وستطوي مسافات طويلة لتصل إلى العمق المصري، وقد وصلت، وها هو دكتاتور مصر يترنّح بين الموت أو الإماتة، ووقفت النساء إلى جانب الرجال، وبدأ المظهر الحضاري يتكامل في سوح المواجهة، وفي ميدان الوغى، وتعلموا من دروس الثورة الشعبانية عام 1991.

إنهم شجعان وبواسل، قاتلوا بدون سلاح، وقد ضمّت صفحات الثورة كل طبقات الشعب.. نحن ننظر إلى هذه المنظومة من الثورات على أنها قلادة رائعة انتظمت حول ناظم واحد وهو الإصرار على انتصار الشعب، وإن: (الشعب يريد تغيير النظام)، وبعد ذلك: (الشعب يريد النظام البديل)، ولا نريد لها أن ترحل من النظام إلى اللانظام، أو ترحل من النظام إلى الفوضى.. على هذه الثورات أن تطرح اليوم شعاراً جديداً وهو: (الشعب يريد إقامة النظام وإصلاح النظام)؛ حتى تنعم شعوب المنطقة التي ثارت، وغيّرت بالنظام البديل حيث الاقتصاد المزدهر والإدارة والأمن والاستقرار والحقوق المدنية والتكامل الثنائي في مركّبات الشعب كله في أي منطقة من المناطق.

لابد لشعبنا البطل أن يواصل ثورته، ففي الوقت الذي نؤرّخ لهذه الثورة عام 1991، إلا أننا نرفض أن نؤرّخ لنهاية هذه الثورة، الثورة لا تعني إسقاط النظام فقط إنما تتواصل الثورة لمواجهة كل أنواع الفساد؛ حتى ترسو قاعدة الإصلاح في المجتمع، وحتى يأخذ الشعب كل الشعب حقوقه من دون استثناء؛ لذلك تبقى الثورة منطقاً إزاء كل ظاهرة من الظواهر التخلّف والعصبية.. لابد أن تبقى الثورة مصمّمة على مواصلة الطريق.. نحن اليوم نقترب من عقد مؤتمر القمة العربي بدورته الحالية، والعراق يستعد لاحتضان هذه الدورة ليس فقط بحكم الأبجدية في التواريخ إنما يستقبل وهو على موعد مع القمة العربية؛ لأن بغداد اليوم غير بغداد الأمس، بغداد اليوم تعاقبت فيها الحكومات بطريقة سلمية انتخابية، وتداول السلطة من حكومة مجلس الحكم إلى الحكومة المؤقتة إلى الحكومة الانتقالية إلى الحكومة الوطنية الحالية حصل بطريقة سلمية، والبرلمان اليوم برلمان يعكس بمكوّناته مكوّنات الشعب، والمرأة يزداد حجم مشاركتها من حيث الكم والنوع بتوالي الدورات، والمركّبات الاجتماعية المختلفة التي يتكوّن منها هناك كخيوط نسيج شعبنا البطل، لا نجد خيطاً من هذه الخيوط، ولوناً من هذا الألوان إلا وله من يمثّله في البرلمان العراقي الجديد.

العراق اليوم يقطع أشواطاً، ونحن اليوم على موعد لنلتقي مؤتمر القمة العربية ليس من موقع العنتريات التي ما قتلت ذبابة، العراق اليوم يستقبلهم بقلب مفتوح بالحب الذي توارثناه من إسلامنا العزيز من خط أهل البيت، يستقبلهم بعقل جديد صنعته التجربة، وصدق الإمام علي (عليه السلام) حين قال:
(العقل عقلان: عقل التجربة، وعقل الطبع).
أو يقول: (التجربة عقل ثانٍ).

تستقبل بغداد اليوم مؤتمر القمة العربي؛ لتفتح آفاقاً وملفات تحاول أن تطوي مسافات، وترحل من شاطئ المشاكل الجزئية إلى شاطئ الاستراتيجيات، وتناقش المشاكل العربية ـ العربية من أوسع أبوابها، والمشاكل العربية ـ الدولية، والمشاكل العربية ـ العراقية، أما المشاكل العراقية ـ العراقية فحسبهم أبناء العراق هم أجدر بحلها.

تستقبل بغداد هذه المناسبة، وهي على أتمّ الاستعداد لأن تضفي على جدول العمل بُعداً واقعياً مستقبلياً نتطلع أن يترك آثاره وانعكاساته على قرارات المؤتمر؛ ليشقّ طريقه إلى التطبيق خصوصاً أن العالم العربي اليوم تمور فيه حركات التغيير، وتنهار فيه نظم شاخت من حيث الزمن، وما نضجت من حيث التجربة، أقدم نظام في العالم وأقدم رئيس جمهورية في العالم كان نظام معمر القذافي منذ عام 1969 حتى 2011، منذ 42 سنة ذهب أدراج الرياح، وكذلك النظام المصري، والنظام التونسي، والنظام الليبي، وكذلك النظام اليمني، والثورة لم تزل تعتمل في صدور الأحرار في كل منطقة من هذه المناطق.. لابد أن نواصل دورنا منذ أن بدأت عقول الشباب تفكّر بصنع ثورة، ودولة.
إن منطق الحكم يختلف عن منطق الثورة، وإن عقل الحكم يختلف عن عقل الثورة، وإن ثقافة الحكم تختلف عن ثقافة الثورة، واجهت الثورة تحديات كبيرة منذ أن سقط النظام المقبور، وواجهت الإرهاب المنظم والإرهاب المُدوَّل، والإرهاب المؤقلم، والإرهاب المُمذهَب جاءت أفواج الإرهابيين من كل حدب وصوب من دولة تدرّب إرهابيين، وأخرى تموّل إرهابيين، وثالثة تجسّر العلاقة بينها وبين الإرهابي المنطلق إلى الهدف والضحية؛ لتوصل من خلال أراضيها أفواج الإرهابيين، وهكذا عمدوا إلى فصم عرى الوحدة الرائعة بين السنة والشيعة، وأبى إخوانكم وأخواتكم إلا أن يصمدوا، ويضحّوا من أجل الدفاع عن وحدة العراق وسيادته.

كان هذا التحدّي قد رافق عملية التحوّل، وكلما زاد التحوّل حدة زاد الإرهابيون شراسة وحماقة، لكنهم تلقّوا (لله الحمد) درساً، وحبط ما كانوا يفعلون... لم يكن الإرهاب قد بدأ في العراق، ولا ينتهي في العراق، الإرهاب المعاصر بدأ من نيويورك وواشنطن في أكبر دول العالم، وتسرّب إلى اسبانيا، وإيطاليا، وبريطانيا، ومصر، وأندونيسيا، وماليزيا، وإيران، وتركيا، والسعودية، ومرّ بالعراق، وهو موجود في أفغانستان والكثير من دول العالم.

نحن اليوم نواجه حرباً عالمية حقيقية اسمها (حرب الإرهاب)، أما الحرب العالمية الأولى والثانية فهي حرب أوروبية – أوروبية، والتعبير عنها بالعالمية ليس دقيقاً، الحرب الحقيقية التي نواجهها اليوم حرب العالمية، أو قُل عولمة الإرهاب هي الحرب المعاصرة.. لا يوجد بلد من بلدان العالم ليس هدفاً للإرهابيين، ولا بلد في أي بلدان العالم في سلام من الإرهابيين، ولا توجد شريحة اجتماعية مستثناة منها، نعم.. هي ليست حرباً نظامية بين جيش وجيش، إنما هي حرب الإنسان المشوّه والمنحرف.. حرب الإنسان الشاذ الذي يستهدف الطفولة والشيخوخة والمساجد والمعابد والكنائس والحسينيات.
ماذا يعني أن تتفجر الألغام في مسيرة الأربعين على الناس الذاهبين إلى الإمام الحسين... ما علاقتها بالمقاومة... هل يوجد الأجنبي المحتل بين هؤلاء الزُوّار... الذين يعمدون إلى هذه الجريمة لا يمتون إلى المقاومة بصلة، المقاومون هم الجيل الذي يتصدّى اليوم، والجيل الذي قدّم في مرحلة المعارضة قوافل من الشهداء؛ حتى يزلزل الأرض، ويهزها من تحت أقدام الدكتاتورية.

أنا أفهم، وأتعقّل الانتماء، ولا أتصوّر إنساناً بدون انتماء بشرط أن لا يتحوّل الانتماء إلى مسألة كسب ماديّ، وتمييز بين المواطنين.. كل الثروة لكل العراقيين، وما بخل العراق على أحد من العراقيين فقد أفاض بمائه، وثروته، وفضائه، وسهله، وزرعه، وصناعته بكل شيء، وقدّمة بالتساوي إلى كل العراقيين، فعلى العراقيين كلهم أن يقدّموا ما لديهم كله إلى العراق كله.. هذا هو الوفاء للعراق، ولا معنى لأن نقيم دولة بل لابد أن نقيم صرح الدولة على قاعدة المجتمع من دون تمييز.. كل الشعب من دون استثناء.. الأرضة التي تأكل الآن في بعض دوائر الدولة والتمييز بين المواطنين سببه المحاصصات السيئة الصيت، على الرغم من أن الرحم العراقي رحم معطاء غير عقيم، وفيه قابليات خلّاقة تستطيع أن تدير دفة الدولة، وأي محافظة أذهب إليها أجد أعضاء مجالس المحافظات والمحافظين إفرازاً للعصارة الوطنية من دون أن تكون للخلفيات العائلية، والحزبية أي حجم يذكر.

هذا هو ما نطمح إليه؛ حتى نفارق رأس النظام السابق بكل ما فيه من قيم وتراتبيات، ونطرح نظاماً جديداً، نعم.. هناك تحديات كثيرة، وأنواع من الفساد، وتحديات حاولت أن تلعب على حبال السلطات، ومحاولة إيجاد معارك موهومة بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية.

الناصرية، وأنا واقف على أرضها، وأواجه شعبها وشبابها رجالها ونسائها، تعاني من بطالة، الناصرية لم تدخر وسعاً فقد قدّمت حتى 2009 ما يقرب من 4300 شهيد، ونوعيات رائعة تختزن في تاريخها التاريخ العالمي كله، تختزن في حضارتها قمم الحضارة.. تخوم الحضارة العالية، تختزن في ثرواتها المتعددة الكثير، وحين تمشي في أراضي الناصرية ستتعثر بالعيّنات الموغلة بالقدم، تعكس لك حضارة أور القديمة مهد الحضارة انتشرت فيها البطالة، وتعطلت الطاقات بدلاً من استثمارها؛ لذا

يتعيّن تحريك عجلة الاقتصاد، وفتح باب الاستثمار، وتوزيع الأراضي بقوانين وقرارات حكيمة، ودعم وإيجاد فرص وقروض للمواطنين غير ربوية؛ حتى يجعل الله (تبارك وتعالى)، فيها الخير والبركة، ومدّ الطرق، والالتفات إلى تراث الناصرية القديم، وتحريك هذا الخزين الحضاري الرائع؛ حتى تؤم الناصرية اليوم مع انتشار الثقافة ومع العولمة الحضارية الثقافية.

الكل ينظر إلى الناصرية، لكن البعض والقسم الكبير لم يتعرف إلى الناصرية، ولم يعرف حقها؛ لذا علينا أن نولي مثل هذه المدينة الاهتمام المطلوب؛ حتى تعود بحاضرها إلى سابق تاريخها السامي والقديم عندئذ سينعم أهل الناصرية بما حباهم الله (تبارك وتعالى)، من الثروات.

إخواني.. أنا أدرك كم هي المظالم التي لازالت آثارها، ولازالت أنيابها تنهش في بدن أبنائنا أو بناتنا في أكثر من محافظة، وهذه من تركات النظام المقبور.. أنا أدرك جيداً أن أبناءكم وبناتكم من أعضاء مجالس المحافظات والمحافظين يسهرون على راحتكم، وأتطلع لأن يصروا على طريق الصعود، وأن الرياح التي تواجههم طبيعية، وإن كانت تتطلب بعض الانحناء أمام الإعصار؛ حتى نواصل مسيرتنا الصاعدة.

في ختام كلمتي أوجّه كلمة إلى أبناء الشعب العراقي البطل:
لابد أن يواصل مسيرته المظفرة برصّ الصف، والحفاظ على الوحدة الوطنية، وتجسير العلاقة بين الثنائيات الجميلة المتكاملة بقومياته المتعدّدة عرباً وكرداً تركماناً وآشوريين، وبثنائياته المذهبية بين السنة والشيعة؛ حتى يكون عصيّاً على الانكسار.. لابد للجميع أن يجعلوا العراق فوق كل شيء، ويجعلوا الهمّ العراقي فوق الهموم، والانتماء العراقي على بقية الانتماءات.

لا نريد عراقاً بدون تعدّد قوميّ، لكننا نريد عراقاً يتقدّم فيه الانتماء الوطنيّ العراقيّ على الانتماءات القوميّة، ولا نريد عراقاً بدون قوى سياسية، لكننا نريد أن نبدأ من المنطلق المشترك الذي تطبع عليه الصفة الوطنية... إننا عراقيون قبل أن نكون منتمين إلى هذا الاتجاه أو ذلك.

من خلال هذا المنبر أوجّه كلمة إلى الشعوب العربية التي دخلت مضمار التغيير: عليها أن تجيد فن الاستمرار، ولا تكتفي بفن البدء، وعليها أن لا تقف عند حدود كونها غيّرت أنظمة إنما تفكر كيف تشيّد الأنظمة البديلة، وعليها أن تستفيد من تجربة العراق، العراق اليوم في الصدارة؛ لأنه مرّ بهذه المحطة منذ حوالى العقد من الزمن، فإلى ليبيا وتونس واليمن ومصر إن قلب العراق مفتوح لكم، وإن عقل العراق مفتوح لكم، وقد شرّفنا قبل بضعة أيام وفد من ليبيا، واطلع على تجربة العراق.

أعتقد أن تجربة العراق اليوم تصلح لأن تكون مادة للدراسة لكل هذه الشعوب التي ثارت، وغيّرت، وللشعوب التي لم تزل تعتمل في صدرها روح الثورة، لابد أن تواصل، ولا تتعب، ويجب أن تتواصل الثورة فما من ثورة في العالم كان زمن انتصارها مساوياً لزمن انطلاقتها كل ثورات العالم حتى التي قادها الأنبياء وبيدهم المعاجز، والتسديد الإلهي كان ما بين انطلاقهم إلى أن وصلوا إلى هدفهم ردح طويل من الزمن:
((إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)).

أوجّه نصيحتي إلى كل زعيم عربي ملكاً كان أم أميراً أم رئيساً للجمهورية: عليه أن يندك بحقوق شعبه، ويتواضع، ويستمع لشعبه؛ حتى يؤمّن لنفسه قاعدة صلبة يقف عليها..
أوجّه كلمة أخيرة:
لابد أن نعيد الحياة إلى هذه المجتمعات، من خلال معالجة الجزء المشلول الذي فرضته العادات والتقاليد، والثقافة الموتورة عبر حقب زمنية طويلة بعضها بل أكثرها جاءنا من الغرب، وهو الذكورية البطرياركية، وشلّ المرأة في المجتمع وهي الجزء الحيوي فيه، ولم يزل يعاني من اختناقات لا تمتّ إلى مبادئنا وقيمنا بصلة...
لابد أن نعيد إلى المجتمع حيويته وإنسانيته من خلال دور المرأة الرائع؛ حتى تأخذ مكانتها في مؤسسة البيت، ومؤسسة المدرسة، ومؤسسة المعمل والمصنع، وكل مؤسسات الدولة، والمؤسسات السياسية؛ حتى نطير بها إلى آفاق عالية.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...